سلسلة فقه الحرب (1)

لمَ الاستراتيجيّة عسرة؟

كولِن غراي





مؤسسة النّازعات
Anaziat

ترجمة: مويلك الشامي

بسم الله الرّحمن الرّحيم

لمَ الاستراتيجيةُ عسِرةَ

كولِن غراي

[Joint Force Quarterly - Summer 1999]

النازعات

محرم ١٤٤٧

كولِن غراي (Colin S. Gray) من أعلام الاستراتيجيين في هذا العصر، وكان من أهمّ مُنظِّري الدراسات الاستراتيجية والعسكرية في زمانه. وُلد بأكسفوردشاير (Oxfordshire) في بريطانيا عام ١٩٤٣م، وتلقى علومه في المدرسة الملكية في روتشستر (King's School Rochester) ثم بجامعة مَنشستر حيث نال البكالوريوس في الاقتصاد بمرتبة الشرف عام ١٩٦٥م، ثم أكمل دراساته العليا بكلية لِنكن (Lincoln) في جامعة أكسفورد (Oxford) ونال الدكتوراه في السياسة الدولية عام ١٩٧٠م.

كان أستاذًا للسياسة الدولية ومديرًا لمركز الدراسات الأمنية بجامعة هَل (Hull)، وقد صنف أكثر من ثلاثين مُصنفًا في التاريخ العسكري والدراسات الاستراتيجية، وله مقالات كثيرة في أمهات المجلات العلمية. وقد خدم خمس سنوات في اللجنة الاستشارية العامة لضبط التسلح ونزع السلاح في إدارة ريغان.

توفي في شباط ٢٠٢٠م.

إنّ مرادي أن أُبيِّن صلةَ الاستراتيجية بجوهر فنها العملي، وأن أُحيل النظر إلى سياق القرن الحادي والعشرين وما فيه من غوامض ومجاهيل. وإنّ في هذا المسعى جرأةً لا تخلو من كبرياء، بل لعله ضربٌ من الغرور، أبلغ ما يُعبِّر عنه طرفةٌ تُروى عن لقاء جمعَ القائدَ القرطاجي **هنيبعل بن برقة** (Hannibal Barca)، بأحد أولئك المتفيهقين في الاستراتيجية من غير أهلها. وقد ابتُلي هنيبعل بما ابتُليت به ألمانيا في هذا القرن الماضي: الانتصار في المعارك، والخسران في الحروب. إذ إنّ هنيبعل ظفر بجميع معاركه في الحرب «البونيقية الثانية»، إلا معركتها الأخيرة، يوم زاما، سنة ٢٠٢ قبل الميلاد، والتي انكسرت فيها رايته أمام القائد الروماني **سكيبيو الإفريقي** (Scipio Africanus)، فخسرتها قرطاجة، ويا للأسى على قرطاجة التي لم تكن تستحق مثل هذا المصير. وقد رُوي أنّ هنيبعل كان قليل الصبر على النقّاد الهواة.

ويُروى –على لسان **شيشرون** (Cicero) في كتابه في الخطابة– أنّ هنيبعل لمّا نُفي وأقام في أفسُس، دُعي لحضور محاضرة يلقيها فيلسوف يُدعَى **فورميو** (Phormio)، في فن القيادة والحرب. فلمّا فرغ المحاضر من إسهابه وبلاغته النظرية، سأل بعضُ جلساء هنيبعل عن رأيه في هذا الذي سمعه. فأجابهم:

«لقد رأيتُ من الخَرِفين خلقًا كثيرًا، في غير مقام، لكن ما رأيتُ أحدًا أكثر خرَفًا من فورميو!»[١].

وها هنا لبُّ هذا المقال، إذ يلوح فيه المعنى العميق الكامن في تلك القاعدة الاستراتيجية العتيقة: «لا شيء مستحيل على مَن لا يباشر الفعل». فقد كنتُ أحد المساهمين في صياغة التوجيه الدفاعي في أوائل الثمانينات، وكان المبدأ العام الموجَّه إلى القوات المسلحة، يمكن اختزاله في هذه العبارة: «كونوا قادرين على الذهاب إلى أي مكان، ومقاتلة أي عدو، وتحقيق النصر». وأعيد القول: إنّ الذين لا يباشرون صنع الاستراتيجية في ميدانها الحادّ، في سوح القتال والتكتيك، لا يرَون للحدود منتهًى، ولا للممكن عائقًا.

إنّ الحكمة الحقّة في الاستراتيجية لا تكون إلا حكمة عملية، لأنّ الاستراتيجية صناعة عملية، لا تنظيرية. فكثيرٌ مما يبدو حكيمًا، بل حصيفًا، في علياء التنظير، لا ينفع المحارب المبتلى بصنع القرار، الذي يباشر الاستراتيجية تكتيكًا وعملًا ميدانيًّا. وشاهدان تاريخيان جليلان يؤيدان هذا المعنى، سيأتي ذكرهما بعدُ.

---

[1] J.F. Lazenby, *Hannibal's War: A History of the Second Punic War* (Warminster, UK: Aris and Phillips, 1978), p. 275.

لقد أسدى إلينا **كارل ڤون كلاوزڤيتز** (Carl von Clausewitz) نصيحة بالغة الحكمة، إذ قال إنّ للنصر «نقطة ذروة»، إذا تجاوزها القائد انقلب تفوقه إلى ضعف نسبي[١]. لكنّ هذه النصيحة الجليلة، على وجاهتها، تظل ناقصة الجدوى، إذ لا تُرسم «نقطة الذروة» تلك على الخرائط السياسية والعسكرية، فضلًا عن الخرائط الطبيعية. تخيل أنك ألماني، وفي زمن ما بين أواخر حزيران من عام ١٩٤١م وأواخر آب من عام ١٩٤٢م. لقد قرأتَ كلاوزڤيتز. فأين تكون نقطة الذروة تلك؟ أفي مِنسك أَم في سمولِنسك؟ على نهر الدنيبر أَم نهر الدون أَم عند الفولغا؟ وكيف لك أن تهتدي إلى موضع تلك النقطة، قبل أن تُنبئك العواقب الوخيمة، بما لا يدع مجالًا للشك، أنك قد جاوَزتَها؟

ومثالٌ آخر من أمثلة الحكمة الاستراتيجية التي يعسر تحويلها إلى نصيحة عملية نافعة، هو ما أكّد عليه كلاوزڤيتز (ومعه **جوميني** – Jomini) من أنّ «خير الاستراتيجيات أن تكون قويًّا جدًّا؛ أولًا على وجه العموم، ثم عند النقطة الحاسمة»[٢]. والتحدي، بطبيعة الحال، ليس في إدراك هذه الحكمة، التي لا تتجاوز من حيث الظاهر دروس المبتدئين، بل في معرفة موضع تلك النقطة

---

(1) Carl von Clausewitz, *On War*, edited and translated by Michael Howard and Peter Paret (Princeton: Princeton University Press, 1976), pp. 566–73. See also Antulio J. Echevarria II, "Clausewitz: Toward a Theory of Applied Strategy," *Defense Analysis*, vol. 11, no. 3 (December 1995), pp. 229–40.

(2) Clausewitz, *On War*, p. 204; Antoine Henri de Jomini, *The Art of War* (London: Greenhill Books, 1992), p. 70.

الحاسمة. فماذا كانت تعني نصيحة كلاوزڤيتز للألمان في أواخر صيف سنة ١٩٤١م وخريفها؟ أكان عليهم أن يُركّزوا قواهم المبعثرة على الجيش الأحمر في الميدان، أَم على طريق موسكو أَم على كليهما؟

ولنمضِ إلى مثال أشد تعقيدًا: مشكلة الجيش الأمريكي في جنوب شرق آسيا في النصف الثاني من عام ١٩٦٥م. فقد كان على الجنرال **ولِيَم ويستمورلاند** (William Westmoreland) أن يُحدد أهدافًا عسكرية تتسق مع أهداف سياسية غائمة في ملامحها. وإنّ تمكُّنَه من مباحث التنظير الاستراتيجي في أدبياته لم يكن ليُرجى منه نفع عملي يُعتدّ به.

الحجة

وقبل أن أمضي في بسط لبّ حجّتي، دعوني أستهلّ القول بنفَسٍ من التفاؤل، يسبق ما قد يبدو من غلبة التشاؤم: إنّ القرن العشرين، على شناعة ما جرى فيه، كان ليكون أدهى وأمرّ؛ أما وجه **السوء** فيه، فهو أنه شهد ثلاث حروب عالمية: اثنتين حارّتين، وثالثة باردة.

وأما وجه **الخير**، فهو أنّ كل واحدة منها قد آلت بالنصر إلى الجهة الأصوب. بل إنّ التهديدات التي عرّضت السلم العالمي للخطر –مرتين من ألمانيا، ثم من الاتحاد السوفييتي– قد جرى احتواؤها، ولو بكلفة باهظة، فإنها لم تكن مجحفة بالنظر إلى ما كان على المحك، ولا مناقضة لمُثُل حضارتنا. نعم، لم

تكن السياسة الغربية وتدبيرها الاستراتيجي في الحربين العالميتين بريئين من العيوب، ولا بد أن نذكّر أنفسنا بحكمة اللورد **كتشنر** (Kitchener) إبّان الحرب العالمية الأولى، إذ قال: «إنّا لا نخوض الحروب كما نهوى، بل كما تقضي الضرورة». وبالجملة، فرغم الأخطاء، أدت الاستراتيجية الغربية أداء لا يُستهان به. وها قد آن أوان النظرة المظلمة.

إنّ حجّتي الأم تنتظم حول ثلاثة أسباب تجعل من الإتيان بالاستراتيجية إتيانًا سديدًا أمرًا عسيرًا:

- طبيعتها في ذاتها، وهي طبيعة دائمة لا تتغير باختلاف الزمان والمكان[١].
- تعدد مصادر الاحتكاك وتنوعها وتنافرها[٢].

---

[١] هذا الطرح هو أهم موضوع في كتاب كولِن غراي «الاستراتيجية الحديثة – Modern Strategy» (Oxford: Oxford University Press, 1999).

[2] Clausewitz, *On War*, pp. 119–21.

الاحتكاك (friction) في الأدبيات العسكرية يراد به: العوائق الصغيرة المتراكمة، والظروف الطارئة، والانحرافات غير المتوقعة، والخلل في التنفيذ، والفجوة بين الخطط والنيات وما يحدث فعليًّا على أرض الواقع. فهي كل ما يعرقل انسياب الاستراتيجية أو العمل العسكري، مما لا يَظهر في التصور النظري، بل لا يُدرَك إلا في ساحة الحرب.

ومن صورها: تأخّر الأوامر أو ضياعها، والخطأ في فهم القادة الميدانيين للتوجيهات، وتغير مفاجئ في الطقس أو البيئة، وتعب الجنود أو ضعف تجهيزاتهم، ومقاومة العدو غير المتوقعة، وانهيار الاتصالات، وقرارات فردية تخرق الخطة الأصلية.

• وأنها تُخطَّط لسياقات لم تحدث بعد، وقد لا تحدث قط؛ فالمستقبل لم يقع.

وهذه الحجة، على حقيقتها، متفائلة، وإن بدا ظاهرها خلاف ذلك، لأنّ الجودة العالية في الأداء الاستراتيجي تظل أبدًا تحت التهديد من طبيعة الاستراتيجية ذاتها، لا لتعقيدها فحسب، بل لِما يبدو أنه قاعدة خفية تقول إنّ ما أمكن أن يختلّ غالبًا ما يختلّ. وقد تفشل الاستراتيجية لأنها تُنزل حلولًا خاطئة على مسائل أُسيء توصيفها، أو لأنها بنَت حسابها على استشراف خاطئ للمستقبل. ومع ذلك، فإنّ انتصار الجانب الصالح ثلاث مرات في القرن العشرين يُبقي لنا موضعًا للرجاء.

قبل الخوض في بيان مصادر التعقيد التي تعترض الاستراتيجية، لا بد من التوقف عند مغالطة جسيمة كثيرًا ما تتكرر. وحتى لا يبدو هذا النقد موجهًا إلى الولايات المتحدة وحدها، سأستشهد بأمريكي أصاب الفهم، وباثنين آخرين –أحدهما أمريكي والآخر ألماني– جانبا الصواب.

أما مَن أحسن الرأي، فهو **ساموئيل غريفيث** (Samuel Griffith)، المتخصص في الفكر العسكري الصيني، من عهد **سَنْ تزو** (Sun Tzu) إلى **ماو** (Mao).

ويمكن تعريبها بقولنا: عوائق التنفيذ، أو الارتباك الميداني، أو الاضطراب العملي. و«الاحتكاك» هو المصطلح المعتمد في الأدبيات العسكرية المترجمة، وفي النفس شيء منه. [مويلك].

وقد علّق ذات مرة على تقرير نشرته مجلة «نيوزويك – Newsweek» في تموز ١٩٦١م عن قنبلة حرارية جوية مخصصة لتدمير التحصينات، بقوله: «لا وجود لحلول آلية جاهزة»[١].

وأما **الآخران**، فقد استُدرجا إلى وهم «الحلول الآلية»، حين ظنّا أنّ التقنية قادرة وحدها على حسم المعارك وتجاوز التعقيد. ورغم كفاءتهما العالية، فقد وقعا في الخطأ عينه، وإن فصل بين كتابتيهما نحو تسعين عامًا

والمسألة الكامنة خلف كلا الرأيين إنما هي: هل بالإمكان أن يُبدد الضباب، ومن ثَم دواعي الاحتكاك التي تُفسد الاستراتيجية التطبيقية، بفضل التقنية الحديثة؟

لقد كتب الفريق **رودولف فون كِمّره** (Rudolf von Caemmerer)، أحد أعضاء هيئة الأركان العامة العظمى، تحت إمرة المشير **ألفرد غراف فون شليفن** (Alfred Graf von Schlieffen)، في سنة ١٩٠٥م، هذه الدعوى: «إنّ الأخطار السابقة، بل والحالية، المرتبطة بإخفاق العمليات المسبقة التنسيق بين أجزاء الجيش المتباعدة، قد أُزيلت تقريبًا بفعل التلغراف الكهربائي. فحتى لو نجح العدو في التمركز بين جيوشنا، أو بين أجزاء من جيوشنا، بما يمنع الجندي الواحد من الانتقال من موضع إلى آخر، فإننا لا نزال قادرين على التواصل

---

(1) Samuel B. Griffith, *On Guerrilla Warfare* (New York: Praeger, 1961), p. 31.

الكامل فيما بيننا، حتى لو امتد القوس إلى مئة أو مئتين أو أربعمئة ميل. يمكن تمديد خطوط التلغراف الميداني في كل مكان، تبعًا لحركة القوات، وستعرف القيادة العامة في كل مساء حال جيوشنا كافة، وتصدر أوامرها بناءً على ذلك»[١].

ثم عاد كِمّره فأقرّ بأنّ التلغراف قد يُضعف بخطورة من نطاق المبادرة المتروكة لقادة الجيوش في الميدان. والمفارقة أنّ ضعف الاتصالات، وغياب التنسيق، وتفكك الجيوش الحاسمة في الجناح الأيمن من الهجوم الألماني في أوائل أيلول سنة ١٩١٤م، كانت هي العوامل التي سهّلت نصر الحلفاء بما سُمّي «معجزة المارن» (Marne)[٢]. لقد كان التلغراف اختراعًا عظيمًا، لكنه لم يستطع أن يبدد ضباب الحرب بصورة تجعل التعويل عليه[٣].

---

(1) Rudolf von Caemmerer, *The Development of Strate gical Science During the 19th Century*, translated by Karl von Donat (London: Hugh Rees, 1905), pp. 171–72.

(2) Holger H. Herwig, *The First World War: Germany and Austria-Hungary*, 1914–1918 (London: Arnold, 1997), pp. 96–106.

(٣) ضباب الحرب مصطلح مجازي شهير في أدبيات الفكر العسكري والاستراتيجي، يُنسَب لكلاوزڤيتز وإن لم يستخدم عين المصطلح، وإنما لفظ كلاوزڤيتز: «الاحتكاك»، وسيأتي تفصيله. والمقصد: حالُ الغموض والالتباس والاضطراب الإدراكي الذي يعتري القادة والمقاتلين أثناء العمليات العسكرية، بحيث تُحجب عنهم صورة الواقع الكامل لِما يجري في المعترك، بسبب تشوش المعطيات، أو تضاربها، أو نقصها، أو تعذّر التثبت منها في زمن الحدث. فالحرب، على خلاف ما يُتصوَّر في النظريات المجردة أو غرف القيادة المحصّنة، ليست لوحةً واضحة المعالم، مرسومةً بريشة

ومثال أمريكي على الخطأ نفسه في صورته الوظيفية نجده في «نظام الأنظمة» السحري الذي بشّر به الأدميرال **وِليَم أوينز** (William Owens)، نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة سابقًا. ففي سنة ١٩٩٥م كتب يقول: «إنّ

الدقة والعقلانية، بل هي في حقيقتها معتركٌ تعمّه الفوضى، وتختلط فيه الرؤية، وتضيع فيه الحقائق، ويصعب فيه التمييز بين ما هو واقع وما هو ظن، وبين ما هو تهديد حقيقي وما هو وهم، وبين ما هو نصر موهوم وما هو خطر كامن. وقد شبه كلاوزڤيتز هذا الاضطراب بـ«الضباب» الذي يلفّ ساحة المعركة، فيعمي الأبصار، ويشوّش الأحكام، ويعوق اتخاذ القرار الصائب في اللحظة المناسبة؛ فلا القائد يرى كامل تحركات عدوه، ولا الجندي يعلم حقيقة ما يجري حوله، ولا المخطط العسكري يستطيع أن يجزم بنتائج ضرباته أو ردود خصمه عليها، إذ كل عنصر في المعركة يقع تحت وطأة هذا «الضباب»، فلا يدري أهو يُقدِم على نصرٍ أَم يُساق إلى مهلكة. وقد ازداد معنى «ضباب الحرب» غَورًا واستحكامًا في عصرنا الرقمي، إذ أضيف إلى الغموض المعهود غموض مأخذه ومؤتّاه كثرة المعلومات وسرعة تدفقها وتضارب مصادرها؛ فباتت كثرة البيانات، لا قلّتها، هي ما يحجب الرؤية ويُعسّر الحكم.

فحاصل القول أنّ ضباب الحرب هو ذاك الغشاء العقلي والنفسي والمعلوماتي الذي يُغشى به عقل القائد وذهن المقاتل في قلب المعركة، فيحول بينه وبين إدراك الواقع على حقيقته، وتقدير الموقف تقديرًا سليمًا، واتخاذ أمثل قرار في أضيق وقت. وهو من أظهر أسباب إخفاق الخطط، واضطراب الحملات، وسقوط الجيوش، ولا سيما حين يُضاف إليه عنصر الخوف، وسرعة التبدل، وخيانة الحدس. الحرب، في جوهرها، بحر من الضباب، لا تُضاء دروبه إلا بشعاعِ البصيرةِ والخبرة والحدس؛ فالحرب ليست علمًا دقيقًا، بل فن يُمارَس في ظل الضباب، أو كما يقول كلاوزڤيتز: «الحرب ميدانُ الريبة، وساحُ الضباب المعتم، إذ إنّ ثلاثةَ أرباع العوامل التي تُبنى عليها أفعال القادة مُغلفة بضباب من الشك يتفاوت كثافة وخفاء. ومن ثَم، فالحاجةُ ماسة إلى حُكمٍ رقيقِ الحس، نافذِ البصيرة، وإلى فطنة خبيرة تستشعر الحقيقة من بين غياهب التوهمات» (انظر: *On War*, p. 101، أو الفصل الثالث والسادس من الكتاب الأول في الطبعة العربية). [مويلك].

النظام الناشئ يبشّر بالقدرة على استخدام القوة العسكرية دون الأخطار القديمة نفسها، إنه يوحي بإمكان تبديد ضباب الحرب»[١].

لكنّ التقنية الجديدة، وإن أُدمجت كما ينبغي في الأسلحة والنظم، وإن كانت بأيدٍ مدرَّبة وعزائم محفَّزة، لا تستطيع أن تمحو الصعوبات التي تُعيق البراعة الاستراتيجية. فكل اختراع جديد، وكل وسيلة مبدعة لخوض الحرب، رغم بريقها، تحمل في كأسها سُمًّا خاصًّا. ثم إنّ الأمر لا يقل أهمية: إنّ الاستراتيجية لا يمكن اختزالها في مجرد قوة القتال[٢]. فالتحسن في الأداء الاستراتيجي الحديث لم يُحرَز بالعلم والتقنية وحدهما.

تأمل هذه الحجة: إنّ الاستراتيجيين في عصرنا هذا قد أُتيح لهم من الوسائل التقنية ما يُعين على تبديد ضباب الحرب، والتغلب على دواعي الاحتكاك، وهي أدوات ما كان لأسلافهم إلا أن يتخيلوها. فبوسع استراتيجي اليوم أن يرى ما وراء التلال، وأن يتواصل آنيًا مع القوات المنتشرة في سائر أنحاء العالم، وأن يُهلِك موارد العدو ووسائله، حيثما كانت، بسرعة بالغة؛ على الأقل إذا كان الجو صحوًا، ولم يكن ثمة مدنيون أبرياء بالقرب من الأهداف. لكنّ المعضلة أنّ الحرب لا يمكن اختزالها في قصف عدو خامل فحسب.

---

(1) Williamson Murray, “Does Military Culture Matter?” *Orbis*, vol. 43, no. 1 (Winter 1999), p. 37.

(2) See Martin van Creveld, *Fighting Power: German and U.S. Army Performance, 1939–1945* (Westport, Conn.: Greenwood, 1982).

فرغم العجائب الكهروميكانيكية، فإنّ أداء الاستراتيجية لم يغدُ أيسر مما كان قبل قرن، بل لعله غدا أشد عسرًا. تأمل في أدوات الاستراتيجي: السكك الحديدية، والتلغراف، والراديو، والطائرات. إنّ الخطر الكامن في كلٍّ من هذه الأدوات هو أنّ الدول الأخرى قد امتلكتها أيضًا؛ ولكلٍّ منها مكامن ضعف خاصة، بل أخطر من ذلك -مثل التنصت على الاتصالات اللاسلكية في الحربين العالميتين- وليس في واحدة منها ما يُعالج جوهر الصعوبات التي يواجهها الاستراتيجي.

فالاستراتيجية ليست في حقيقتها فن القتال وحسب، على أهميته، وإنما هي -كما عند كلاوزڤيتز- «توظيف المعارك لبلوغ غاية الحرب»[١].

إنّ ضباب الحرب والاحتكاكات التي تعرقل الأداء الاستراتيجي وتربكه، ليست مجموعة ثابتة من التحديات المحدودة التي يمكن القضاء عليها بالدراسة، فضلًا عن الآلات. فإنّ كل آلة جديدة، وكل طَورٍ مستحدث من أطوار الحرب، يحمل في طياته جرثومةَ نقضِه الذاتي؛ تقنيًّا، أو تكتيكيًّا، أو عملياتيًّا، أو استراتيجيًّا، أو سياسيًّا[٢].

(1) Clausewitz, *On War*, p. 128.

(٢) للتأملات المطوّلة في هذا الشأن، انظر:

Edward N. Luttwak, *Strat egy: The Logic of War and Peace* (Cambridge: Harvard Uni versity Press, 1987).

والتصدي لضباب الحرب والاستراتيجية واحتكاكهما، لا يُشبه اجتراحَ أرضٍ مجهولة، يتتابع فيها المستكشفون، فيُضيف كلٌّ منهم جديدًا إلى الخريطة. فإنّ خريطة الضباب والاحتكاك حية متحولة، تعيد تنظيم نفسها، وتعمل على إحباط عزم المستكشف الجسور.

لِمَ الاستراتيجيةُ عسِرة؟

كان المشير **هلموت غراف ڤون مولتكه** (Helmuth Graf von Moltke) – المنتصر في حروب توحيد ألمانيا– مُصيبًا حين كتب في «تعليمات للقادة الأعلى»: «الاستراتيجية هي تطبيق الفطرة السليمة على إدارة الحرب. إنما الصعوبة كلها في التنفيذ...»[١]. لقد كان مولتكه الشيخ يُعيد صياغة كلام المعلم. إذ قال كلاوزڤيتز: «كل شيء في الاستراتيجية يسير جدًّا، لكنّ ذلك لا يعني أنّ كل شيء سهل»[٢].

ولِمَ هي كذلك؟ يمكن تقديم خمسة أسباب.

يرى لوتفك أنّ ما يفلح اليوم قد لا يفلح غدًا، تحديدًا لأنه أفلح اليوم. وبما أنّ كلاوزڤيتز يُصرّ على أنّ الحرب بطبيعتها مبارزة، فقد يُواجَه الإنسان بعدو قادر على أن يتفاعل مع تحركاته بتخطيط خلّاق، بل ربما أن يسبقها بتوقع وسبقٍ إدراك.

(1) Caemmerer, *Strategical Science*, p. 276.

(2) Clausewitz, *On War*, p. 178.

أولًا: الاستراتيجية ليست سياسة ولا قتالًا مسلحًا، بل هي الجسر الذي يصل بينهما. وقد يُحبَط جهدُ الاستراتيجي إذا خاضت القواتُ حربًا خاطئة بكفاءة، أو حربًا صائبة بسوء. وليس شرطًا أن يكون الخبير في السياسة وصناعتها أو الخبير في القتال ومهارته، خبيرًا في الاستراتيجية. فالاستراتيجي لا بد أن يصل أثر القوة العسكرية بأهداف السياسة. فإذا غاب العقل الاستراتيجي -كما حدث في حالة الولايات المتحدة وحلف «الناتو» تجاه البوسنة وكوسوفو- فلن يبقى بين أيدينا إلا توليفة محرجة: تصريحات سياسية جوفاء، مقرونة بإمكانيات القصف الجوي (تلك النظرة التي ترى العالم كله أشبه بلوحة رمي السهام في عُرف الاستراتيجيين الجويين)[1]. إنّ الاستراتيجية صعبة لأنها، في جملة ما هي عليه، لا هي من السياسة ولا من فن الحرب، بل شيء مختلف في جوهره عن كلٍّ منهما.

ثانيًا: الاستراتيجية مُعقّدة إلى حد خطير بطبيعة ذاتها. فإنّ كل جانب من جوانبها، أو عنصر من عناصرها، يمكن أن يؤثر في سائر الجوانب الأخرى.

---

[1] هذا التفسير يُعدّ قراءةً منصفة للأساس الذي تنهض عليه نظرية القوة الجوية. انظر:

Giulio Douhet, *The Command of the Air*, translated by Dino Ferrari (New York: Arno Press, 1972), p. 50; and John A. Warden III, "Success in Mod ern War: A Response to Robert Pape's Bombing to Win," *Security Studies*, vol. 7, no. 2 (Winter 1997/98), pp. 174–85.

فبالنسبة للاستراتيجي الجوي، فإنّ الاستهداف يُعدّ هو الاستراتيجية بعينها.

وطبيعة الاستراتيجية ثابتة في التاريخ، أما صورتها فهي في تغيُّر مستمر تبعًا لتحولات التقنية، والمجتمع، وأفكار السياسة. وإن النجاح في الاستراتيجية لا يكمن في الظفر بموقع متميز في واحد أو أكثر من جوانبها –كالتقنية، أو الجغرافيا، أو القيادة– لأنّ العدو قد يجد، دائمًا، سُبُلًا للتعويض عن ذلك الأثر الاستراتيجي بما يملكه من مواطن قوة خاصة. وهذه علة أساسية تجعل من الهيمنة المعلوماتية، في معناها التقني التكتيكي، غير قادرة على أن تُفضي، بمفردها، إلى نصر موثوق. فإنّ النصر في الحرب لا يرتبط على وجه الثقة بالتفوق التقني، ولا بالتمكُّن من جانبٍ مزعومٍ السيادة في الصراع.

ثالثًا: إنّ تدريب الاستراتيجيين أمر بالغ العُسر، بل لعله محال. تأمل كلمات **نابليون بونابرت** حيث قال: «التكتيكات، والحركات العسكرية، والمدفعية، وعلوم الهندسة العسكرية، يمكن تعلّمها من الكُتب، كما تُتعلّم الهندسة؛ أما فن القيادة العليا في الحرب، فلا يُكتسب إلا بدراسة تاريخ الحروب ومعارك القادة العظام، ومن التجربة الذاتية. لا توجد قواعد مختصرة دقيقة على الإطلاق؛ فكل شيء مرهون بطبع القائد وما فُطِر عليه، وما أُوتي من مزايا، وما فيه من نواقص، وبطبيعة الجنود، وخصائص الأسلحة، والفصول، وألف ظرف وظرف يجعل لكل موقف خصوصيته التي لا تُشبه غيرها»[1].

[1] Caemmerer, *Strategical Science*, p. 275.

ولقد كان نابليون في مقام يتيح له العلم بذلك. فهو، كقرينه هنيبعل، كان بارعًا في كسب المعارك، لكنه أخفق إخفاقًا مروعًا في فن الاستراتيجية. فكما سلكت ألمانيا الامبراطورية، وألمانيا النازية، والاتحاد السوفييتي، من قبل، الطريقَ نفسه، سعت فرنسا الامبراطورية إلى غايات سياسية تفوق قدرتها، وذلك هو الإخفاق في الاستراتيجية.

وأصل الإشكال في إعداد القادة الاستراتيجيين مردُّها إلى حقيقة جوهرية: أن لا نظامَ تعليميًّا يَغرس ما عَرِي عنه الطبع، وإنّ البراعة الفائقة التي يُبديها السياسي أو القائدُ العسكريّ في صَنعته، لا تُعدّ برهانًا على مَلَكةٍ في الاستراتيجية. فالاستراتيجي إنما يُطلَب منه أن يُحسِن استخدام القوة، أو التهديد بها، لتحقيق مقاصد السياسة، لا أن يصوغ تلك المقاصد المرغوبة، ولا أن يُجيد فن القتال بحد ذاته.

رابعًا: ولأنّ الاستراتيجية تتناول سائر أوجه الأداة العسكرية (بل غير العسكرية كذلك)، وتمسّ عناصر شتى من بِنية الدولة والمجتمع اللذين تخدمهما، فإنّ عدد ما يمكن أن يسوء فيها أقصى ما يُتصوَّر. وبيان ذلك: أنّ مصادر الاحتكاك التي قد تَحُول دون الأداء الاستراتيجي، تشمل ما هو معروف في الميدان العسكري –من التنافر بين مستويات الفعل العسكري، والوظائف المتخصصة كالتخطيط، والإمداد، وصناعة السلاح– وقد تكون أفتكَها جميعًا:

عدمُ التناسق بين السياسة والقدرة العسكرية. فإنّ ميدان الاستراتيجية، بخلاف ميدان التكتيك، أوسعُ مجالًا للزلل والخطأ.

أخيرًا: لا بد من التنبيه إلى مصدر قلّما يُلتفت إليه من مصادر الاحتكاك: إرادة العدوّ، ومهارته، ووسائله، إذا كان عدوًّا ذكيًّا خبيثًا. وقد عرّف **أندريه بوفغ** (André Beaufre) الاستراتيجية بأنها «فن الجدل بالقوة، أو على وجه أخص: فن الجدل بين إرادتين متعارضتين، تستعملان القوة للفصل بينهما»[١].

وتذكّر مقولة كلاوزڤيتز: «فالحرب، إذن، فعلُ قسرٍ يرادُ به إرغامُ العدو على إنفاذ إرادتنا»[٢].

لكن من اليسير التنظير في سُبلٍ جديدةٍ للغلبة، ومن العسير، بل الأندر، أن يتأمل المرء بصدق وخيال في مبادرات العدو المحتملة، واستجاباته الممكنة.

أفكار أخرى

من وجه ما، فإنّ هذا المقال يُعيد اختراع العجلة. فليس فتحًا مبينًا أن يدرك المرء أنّ إتقان الاستراتيجية أمر عسير. بل إنّ جوهر قولي لا يبتعد كثيرًا عن ما ذهب إليه لورنس فريدمان في كتابه «تطور الاستراتيجية النووية»، إذ استغرق في

---

(1) André Beaufre, *An Introduction to Strategy* (London: Faber and Faber, 1965), p. 22.
(2) Clausewitz, *On War*, p. 75.

بيانه ثلاثمئة وثلاثًا وثلاثين صفحة ليخلص إلى أن لا حلّ استراتيجيًّا حقيقيًّا لمعضلات الاستراتيجية النووية[١].

وحين ينبري المتفلسفون في أروقة الفكر ليقولوا للعسكريين إنّ عملهم عسير على المستوى الاستراتيجي، فلا ينبغي لهم أن ينتظروا منهم مديحًا وافرًا. فإنّ الاستراتيجية لا بد من أن تُمارس على كل حال. فالأكاديمي قد يتوقف عن الحكم ويكتب كتابًا جديدًا، أمّا الاستراتيجي العامل فلا مفرّ له من اتخاذ القرار، وإن خيم عليه الضباب.

ثم لا بد من التأكيد على الجهل الاستراتيجي، حتى لدى أهل العمل والمباشرة. فقد كتب كلاوزفيتز: «قد يُظن أنّ السياسة قد تطلب من الحرب ما لا تستطيع الحرب الوفاء به، ولكنّ هذا الظنّ يناقض الافتراض الطبيعي الحتمي، وهو أنّ السياسة تعرف الأداة التي تنوي استعمالها»[٢].

والإشكال أنّ أحدًا لا يعلم –قبل أن تُبتلى الأمور بالميدان– ما مدى فعالية القوة العسكرية. فإنّ كل واقعة من وقائع السلاح فريدة لا نظير لها. وقدرة ما، تبدو في زمن السلم مُهلكة فعالةً في المناورات، لا تتحوّل تلقائيًّا إلى إكسير عنيف يحلّ المعضلات السياسية. بل إن تفوّق القوات المسلحة في مجابهة عدو

---

[1] Lawrence Freedman, *The Evolution of Nuclear Strategy* (New York: St. Martin's Press, 1981), p. 433.
[2] Clausewitz, *On War*, p. 75.

تقليدي في حرب مفتوحة قد يُغدو بلا طائل، أو أسوأ، إذا كانت الساحة مدينة وأهدافُها مدنية. فإنّ الجيوش في زمن السلم تتدرب على محاكاة أنفسها، وذلك في حد ذاته مصدر عظيم من مصادر الغموض إزاء فعاليتها المستقبلية.

ولا بد من الانتباه إلى ما قد يعتري ثلاثةَ أضربٍ من العلاقات من توتر كامن: بين الساسة والقادة، وبين القادة والمخطّطين، وبين القادة والنظريين (تذكّر سعيَ فورميو لتعليم هنيبعل!).

فالمهنيون العسكريون لا بد لهم أن يُبسّطوا، ويُركّزوا، ويتخذوا القرار، ثم يُنفّذوا. وأما الساسة، فبطبيعة صناعتهم، يرون –أو يخشون– اتساع الآثار، ويميلون إلى التمويه بدل الحسم، ويحبون إبقاء الخيارات مفتوحة لأطول وقت، متخذين أقل القرارات الممكنة، في أواخر الأوقات الممكنة. وأما القادة، فعلى ما بهم من انشغال مستحكم بالمطالب العملياتية، فإنّ المخططين –لا سيما إذا لم يَصْقُلْهم واقع الميدان– كثيرًا ما يعيشون في عالم مُنظَّم، يَحسُن فيه النموذج المثالي للكفاءة والتسوية، بل يعدّونه موجهًا للعمل وغاية.

ويبلغ التوتر غايته حين يُناط بمَن لم يكن غيرَ مخططٍ عسكري منصبُ القيادة العليا. والمثال المعروف على ذلك: **دوايت أيزنهاور** (Dwight

Eisenhower)، الذي كان ضابط أركان بارعًا وسياسيًّا عسكريًّا ماهرًا، لكنه لم يكن يملك لا التجربة ولا القابلية الفطرية للقيادة، فضلًا عن القيادة العليا[١].

وأما الفجوة بين المنظّرين والممارسين في حقل الاستراتيجية، فهي أن الفريق الأوّل بارع في إنتاج التعقيد، وأقل ما يكون توفرًا على التعاطف مع واقع العمليات الميدانية الذي يُكسب الأفكار الاستراتيجية نفعها العملي. فمثلًا، قد يتخيل الاستراتيجي النووي عشرات من خيارات التهديف، دون أن يُدرك أن نظريته قد تجاوزت نقطة الذروة في النصر –بل في الحقيقة: نقطة الذروة في الإمكان– منذ مرحلة مبكرة للغاية. وإذا فُرض على رئيسٍ لم يكن مهتمًّا البتة بالاستراتيجية النووية أن يتخذ قرارًا فجريًّا في صباح عيد الميلاد، فلن يُرجى له أن يُحسن التعامل مع طوفان الخيارات عقليًّا، وأخلاقيًّا، وسياسيًّا، واستراتيجيًّا.

---

[١] انظر:

Dominick Graham and Shelford Bidwell, Coali tions, *Politicians and Generals: Some Aspects of Command in Two World Wars* (London: Brassey's, 1993).

في فصوله من التاسع حتى السادس عشر، يُقدّم قراءة نقدية شديدة ضد أيزنهاور بوصفه قائدًا، من منظور أنغلو كندي صريحًا، ويُعدّ تصحيحًا جزئيًّا للرؤية «الوطنية» للحملة الأوروبية التي تسود بعض كتب التاريخ العسكري الأمريكي، كما عند:

Stephen E. Ambrose in *The Victors: Eisenhower and His Boys: The Men of World War II* (New York: Simon and Schuster, 1998).

وربما كان أنفع ما يُعرض عليه من بدائل، هي الثنائيات العريضة: أَنمضي الآن أَم لاحقًا؟ أَنقصف قصفًا هائلًا أَم محدودًا؟ فمثل هذه الخيارات الكبرى قد تكون أقصى ما يبلغه التفكير الاستراتيجي في دائرة الرئاسة.

كم من استراتيجيين قدّموا عروضًا موجزة بدت ذكية بارعة، لكن ما إن بلغوا الشريحة الثالثة في عرضهم البصري حتى تقاطعت عيون المسؤولين الكبار، وانغلقَت أذهانهم.

ويمكن أن تُجمَع جميع العلل التي تجعل من الاستراتيجية فنًّا صعبًا عسير الإتقان في ضوء ثلاثة شروط للنجاح الاستراتيجي:

- لا بد أن تكون القوات متماسكة من الداخل، أي أنها قادرة على العمل المشترك بكفاءة.
- وأن يكون لها من العدد والأثر الاستراتيجي ما يتناسب مع المهام التي قررتها السياسة العليا.
- وأن تُستخدَم استخدامًا قسريًّا في تحقيق أهداف عسكرية تنسجم مع الغايات السياسية.

ذلك أنّ الكفاءة لا تستطيع أن تُعوّض الحماقة إذا اختلّ ميزان الوسائل والغايات في الاستراتيجية. وإن صفحات التاريخ العسكري مفعمة بجيوش أحرزت الانتصارات في الحملات، لكنها كانت تخوض الحروب الخاطئة.

ولـمّا كان المستقبل لا يُحيط به نظر -وإياك أن تركن إلى قولهم: «المستقبل المنظور»- فالواجب أن لا يُعوَّل إلا على العُدّة المأمونة، وإنّا، إذ نعزم على سلوك استراتيجي في مستقبل غامض، فإنما نُنيط تدبيرنا بثلاثة أصول من المشورة المجربة:

- التجربة التاريخية.
- قاعدة التؤدة والتأني الذهبية: ألّا نَدَع للآمال سلطانًا على التدبير.
- الحس السليم، وهو ما يمكن تثقيفه بالنظر في التاريخ.

لكن لأنّ المستقبل لم يحدث بعد، فإنّ كل ما نرجوه منه ليس إلا ضربًا من التخمين، لكنّ التخمين المستنير بالتاريخ خير من ذاك الذي لا ينظر فيه. والتخطيط لِما يُستقبَل، كالعزم على خوض الحرب، مخاطرة لا تنفكّ عن المغامرة.

وختامُ القول بنفَسٍ من التفاؤل: ليس النجاح في الاستراتيجية رهنًا بالعبقرية، ولا يستلزم كونك من البراعة في غاية؛ إنما يُشترط أن تكون كفاءتُك كافية لهزيمة العدو. ليس لزامًا عليك أن تنتصر بانسياب وأناقة، بل حسبُك أن تنتصر.